

ذكري سعيد

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد محي

السنة السادسة - العدد 1189 الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 - 11 مارس سنة 1943

الهاشمي الفيلاي

مضى عام كامل على وفاتك يا سعيد، وها هم إخوانك الأبرار وأصدقاؤك الأوفياء يحتفلون اليوم بذكراك، وإنها لذكرى تثير في نفس كل واحد منهم ذكريات، تمثل أمامهم صفحة عامرة طويت، ومرحلة حافلة في معترك هذه الحياة اجتيزت، وجندى في وسط المعمة استشهد، ودور رائع مدهش أسدل عليه ستار. لأنك لم تكن من أولئك الذين يعبرون هذه الدنيا الفاتنة فتفتهم حتى عن أنفسهم فيلون عنها ولا يتركون بها دوياء. لأنك لم تكن من أولئك الذين يرتبطون بالناس ويتصلون بالحياة فيقنعون بالدون ولا يتركون لهم أثرا ما يبقى في النفوس عالقا، وفي القلوب مرسوما، وفي سجل الأيام محفوظا، بل كنت عملا متجسما وأملا باسما، وحياء حية، وروحا سيارة لا تهبي مرحلة إلا وتبدأ أخرى لا تعرف لها نهاية ولا تحب أن تعرفها، لا تضع لأفققها حدودا ولا تريد أن تتصورها. في كل ميدان لك جولة، وفي كل افق لك تحليق، فما ذا تثيره ذكراك في نفس أخيك؟ إنها لتثير في نفسي ذكريات كثيرة وكثيرة جدا، إنها لترجع بي إلى ماض حفيل وحفيل جدا بالأعمال والآمال والآماني والأحلام، إنها لترجع بي إلى مراحل عديدة ومتنوعة من تاريخنا الوطني، ومن أغنى تلك المراحل للعاطفة وللعمل يوم كنت بعيدا عن بلادك في الشرق للدراسة والاستطلاع والتكون، فترى شباب الأمم العربية العامل المجد، فترهم المثل لشباب

المغرب النشيط المتحفز؛ يوم كنت بعيدا عن بلادك ولكن تصبو لأن تكون على صلة دائما بأخبارها وأحوالها وأعمال رجالها ومراحل تطورها، تسأل عن القليل والكثير والعظيم والحقير والكبير والصغير، وتستطلع كل وافد ووارد وكل غاد ورائح، فيكون لك من ذلك مصدر سلوة شريفة ومادة أعمال جلية، ومع ذلك تناجي نفسك متعللا كما جاء في رسالة لك من دمشق في 19 فبراير سنة 1932 : « فصبوا يا فؤادي المشتاق إلى وطني وإلى أعمال أبنائه الأبرار فلم يبق إلا نحو أربعة شهور لنجتمع ولنفعل ما بدا لنا وما يحقق رجاءنا في كل ما يتعلق ببلادنا العزيزة » يوم كنت بعيدا عن بلادك في أوروبا، فما كانت مدينتها الخلاب، ولا مظاهرها عظمتها الجذابة، ولا خدعها الفاتنة، لتغير روحك، أو تفتنك عن بلادك، أو تنسيك أصدقاءك، بل كنت كما تقول من رسالة أخرى من لندن في 16 فبراير سنة 1936 : « وصلت إلى لندن بعد أيام فهي حافلة بكل شيء ومن كل صنف وبأي نوع ولكن أشعر فيها بغربة » ، يوم كنت لا لسانك يمكن أن يترجم عن عواطفك، وأعمالك تنبئ عن إحساساتك ولكن بقلمك كنت تسجل كل ما كان يختلج في نفسك الكريمة نحو إخوانك ونحو بلادك فكانت رسائلك خير متعة للقلب وأحسن سلوة للروح وأبلغ رسول من القلب إلى القلب وأفصح ترجمان معرب عن أمانيك وأحلامك. كل ذلك وكثير غيره تثيره اليوم ذكراك في نفسي فأذكر أخوا في العمل ورفيقا في الميدان، والحديث عن إخوان العمل ورفقاء الميدان مما لا زال لم يحن وقته، وأذكر صديقا وفيها والحديث عن سعيد الصديق فيه وفاء وعزاء وفيه عبرة في هذه الظروف التي علا فيها صوت الحديد والنار، صوت القسوة والشدة، صوت العاطفة والعقل، صوت الرحمة والرفقة، فأصبح من الإنسان للإنسان أسود ضاربة وذئاب مفترسة. لا إخوانا أصفياء ولا أصدقاء أوفياء في هذه الظروف التي سيطرت فيها المادة على الروح فجعلت من إنسان الأخوة إنسان الأثرة، ومن إنسان العاطفة إنسان القسوة، ومن إنسان العقل إنسان الجنون، ومن عالم الاطمئنان والخير عالم الفتنة والشر حتى أصبح الناس وقليل منهم أولئك

الذين سمّت أرواحهم وطهرت نفوسهم وفضلت أعمالهم فكان لهم من الصداقة والأخوة متعة الحياة ولذة الروح وطمأنينة النفس وباعث العمل ومصدر التوفيق ورائد النجاح.

لقد كنت صديقا وتقدر الصداقة قدرها فكنت حريصا على أن تكون الأخ الوفي والصديق المخلص الذي يحيا لأجل أصدقائه يشقى لسعادتهم ويتعب لراحتهم. فكان لك منهم ملجأ عند الشدة، ومرشد عند الحيرة، وعون عند الحاجة، وعطف عند القسوة.

وكنت لهم موقد العزائم الفائرة، ومحقق الآمال البعيدة، وموجد المشاريع المتنوعة، تسهل لهم كل صعب، وتذلل لهم كل عقبة، وتتحمل في سبيل غايتك عبء كل مخاطرة.

لقد كنت صديقا وما كانت صداقتك صداقة عوارض تزول أو منافع تفنى، ولكن صداقة صفاء طيبة وميزالة سامية تقدرها في أصدقائك ويقدرونها فيك، ومن تقدير متبادل إلى إعجاب مشترك، ومن عطف قلبي إلى وداد روحي، ومن اتحاد في الشعور إلى امتزاج في العواطف والإحساس، وأنى لطلاقة بدايتها تقدير ونهايتها محبة وغايتها خير مطلق وفضيلة مشتركة أن ينسيها مر الزمان أو بعد المكان أو فراق الأجسام.

لقد كنت تحب أن أقتلع كل صورة في ذهني عنك وأن لا أتصورك، كما ورد في رسالة لك من سلا في 7 غشت سنة 1935 : « إلا ذلك السعيد البسيط الذي يحيا لأصدقائه ويرى في الصداقة أقوى رابطة روحية ». فتصورتك كما كنت تحب في حياتك، وها أنا أصورك كما كنت تريد بعد وفاتك.